

سورة الإسراء

(الآيات: 85 - 82)

الدرس

21

أهداف الدرس

- 1- أن أتعرف أثر القرآن الكريم على المؤمنين وغيرهم.
- 2- أن أستنتج من الآيات ما يدل على سعة علم الله تعالى وقصور علم الإنسان.
- 3- أن أتدبر القرآن الكريم لتزكية نفسي وتطهيرها من المكدرات.

تمهيد

لما فصل الله تعالى في الآيات السابقة الإلهيات والنبوات والحشر والمعاد والبعث وإثبات القضاء والقدر، وأمر بالصلاة ونبه على ما فيها من الأسرار؛ أكد في هذه الآيات بأن القرآن الكريم شفاء ورحمة لأهل الإيمان، وخسران لأهل الظلم والطغيان، وأن الإنسان الجحود يتنكر لنعم الله ولا يقدر المعروف، ويأس ويتشائم عند الشر، ثم بين الله تعالى أن حقيقة الروح من عنده وحده، وهذا دليل على سعة علمه سبحانه وقصور علم الإنسان الذي ينحصر بالحسيات دون الغيبيات.

ففيما يتمثل شفاء القرآن الكريم؟ وما الذي يدل على سعة علم الله تعالى؟

الآيات

قال الله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ مَا نَعُوشِقُ وَأَوْشَقُ وَرَحْمَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا خَسَارًا ۝٨٢ وَإِذْ أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِسْرَاءِ نَسْرًا عَرَضَ وَنَجَّاجًا بَعْدَ إِذْ أَمْسَهُ الشَّرْكَانَ يَعْوَسًا ۝٨٣ فَلْيَعْمَلْ عَلَى شَاكِلَتِهِ، فَرُبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا تَعْوَأُونَ فِي سَبِيلِكُمْ ۝٨٤﴾

• وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ فَلِ الرُّوحِ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾

[سورة الإسراء: 82 - 85]

الفهم

الشرح :

أَعْرَضُونَ عَنِ الرُّوحِ : أدبر وتولى وتباعد.

يَعُوسًا : قنوطا شديد اليأس من رحمة الله.

عَلَى شَاكِلَتَيْهِ : على طريقيته ومذهبه الذي يشاكل حاله في الهدى والضلال.

استخلاص مضامين الآيات:

1- ما هو أثر القرآن الكريم على المؤمنين وغيرهم؟

2- بماذا استأثر الله تعالى في هذه الآيات؟

التفسير

اشتملت هذه الآيات على ما يأتي:

أولا: القرآن الكريم شفاء ورحمة لأهل الإيمان:

قال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾، قوله: ﴿مِنَ الْقُرْآنِ﴾ يصح أن تكون ﴿مِنْ﴾ لابتداء الغاية، ويصح أن تكون لبيان الجنس، كأنه قال: وننزل ما فيه شفاء من القرآن. وأنكر بعض المتأولين أن يكون ﴿مِنْ﴾ للتبعية لأنه يلزم منه أن بعضه لا شفاء فيه. قال ابن عطية: وليس يلزمه هذا، بل يصح أن يكون للتبعية بحسب أن إنزاله إنما هو مبعض، فكأنه قال: وننزل من القرآن شيئا شيئا ما فيه كله شفاء.

واستعارته الشفاء للقرآن هو بحسب إزالتة للريب وكشفه غطاء القلب لفهم المعجزات والأمور الدالة على الله تعالى المقررة لشرعه، ويحتمل أن يراد بـ " الشفاء " نفعه من الأمراض بالرقى والتعويد ونحوه. وكونه ﴿رَحْمَةً﴾ ظاهر.

ثم لما بين الله تعالى أن القرآن شفاء ورحمة للمؤمنين، بين كونه سببا للخسار والضلال في حق الظالمين المشركين، فقال سبحانه: ﴿وَلَا يَزِيدُ الْظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ معنى أنه عليهم عى، إذ هم معرضون كحالة من لا يفهم ولا يلقي. " وإنما كان كذلك لأن سماع القرآن يزيدهم غيظا وغضباً وحقدًا وحسدًا. وهذه الأخلاق الذميمة تدعوهم إلى الأعمال الباطلة وتزيد في تقوية تلك الأخلاق الفاسدة في جواهر نفوسهم، ثم لا يزال الخلق الخبيث النفساني يحمل على الأعمال الفاسدة، والإتيان بتلك الأعمال يقوي تلك الأخلاق، فبهذا الطريق يصير القرآن سببا لتزايد هؤلاء المشركين الضالين في درجات الخزي والضلال والفساد والنكال " [مفاتيح الغيب، للرازي: 21 / 390].

ثم ذكر سبحانه أن حب الدنيا والرغبة في جمع المال والاعتقاد بأن ذلك بكسب الإنسان هو سبب وقوع هؤلاء المشركين في الضلال والخسران، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَجَّاجَانِيَّةً﴾، ولا يراد بـ " الإنسان " في هذه الآية العموم، وإنما يراد به بعضه وهم الكفرة، وهذا كما تقول عند غضب: لا خير في الأصدقاء ولا أمانة في الناس، فأنت تعمم مبالغة، ومرادك البعض، وهذا بحسب ذكر الظالمين. و" الخسار " في الآية قبل، فاتصل ذكر الكفرة.

ويحتمل أن يكون الإنسان في هذه الآية عاما للجنس، على معنى أن هذا الخلق الذميم في سجيته، فالكافر يبالي في الإعراض، والعاصي يأخذ بحظه منه. وقد قال رسول الله ﷺ في مؤمن: " فأعرض فأعرض الله عنه "، ومعنى ﴿أَعْرَضَ﴾ ولانا عرضه. و﴿وَنَجَّاجَانِيَّةً﴾ أي: بعد، وهذه استعارة؛ وذلك أنه يفعل أفعال المعرض النائي في تركه الإيمان بالله وشكر نعمه عليه.

وقرأ ابن عامر وحده (وناء)، ومعناه نهض، أي: متباعدة، هذا قول طائفة. وقالت أخرى: هو قلب للهمزة بعد الألف من " نأى " بعينه، وهي لغة كراى وراء. ومن هذه اللفظة، قول الشاعر في صفة رام:

حتى إذا ما التأمت مفاصله * * وناء في شق الشمال كاهله

ومعناه: نهض متوركا على شماله. والذي عند ابن عطية أن ناء ونأى فعلان متباينان. وناء بجانبه عبارة عن التحيز والاستبداد، ونأى عبارة عن البعد والفراق.

ثم وصف الكفرة بأنهم إذا مسهم شر من مرض أو مصيبة في مال أو غير ذلك يئسوا من حيث لا يؤمنون بالله ولا يرجون تصرف أقداره، قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانُوا يَئُوسًا﴾.

ثم قال عز وجل: ﴿فَلْيَعْمَلْ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾ الأمر للنبي ﷺ، أي: قل يا محمد. قال مجاهد: ﴿عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾ معناه على طبيعته. وقال أيضا: معناه على حدته. وقال ابن عباس: معناه على ناحيته. وقال قتادة: معناه على ناحيته وعلى ما ينوي. وقال ابن زيد: معناه على دينه. وأرجح هذه العبارات قول ابن عباس وقتادة.

وهذه الآية تدل دلالة ما على أن الإنسان أولا لم يرد به العموم، أي: إن الكفار بهذه الصفات، والمؤمنون بخلافها، وكل منهم يعمل على ما يليق به. ﴿قَرَّبَكُمْ وَأَعْلَمَ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا﴾ أي: "أسد طريقا، وأبين منهجا" [أنوار التنزيل وأسرار التأويل، للبيضاوي: 3/ 265].

ثانيا: استنثاره تعالى بعلم حقيقة الروح:

لما ختم الله تعالى الآية السابقة بقوله: ﴿فَلْيَعْمَلْ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾ [الإسراء: 84]، وكان للأرواح دور في الأفعال الصادرة عن الإنسان، عرض الله تعالى للروح وبين أنه سبحانه استأثر بعلم حقيقتها، فقال عز وجل: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾، الضمير في ﴿يَسْأَلُونَكَ﴾ قيل: هو لليهود، وإن الآية مدنية. وروى عبد الله بن مسعود أنه كان مع رسول الله ﷺ فمر على حرث بالمدينة، ويروى على خرب، وإذا فيه جماعة من اليهود، فقال بعضهم لبعض: سلوه عن الروح؛ فإن أجاب فيه عرفتم أنه ليس بنبي. وذلك أنه كان عندهم في التوراة أن الروح مما انفرد الله بعلمه ولا يطلع عليه أحدا من عباده. قال ابن مسعود: وقال بعضهم: لا تسألوه لئلا يأتي فيه بشيء تكرهونه، يعني والله أعلم من أنه لا يفسره فتقوى الحجة عليهم في نبوته. قال: فسألوه، فوقف رسول الله ﷺ متوكئا على عسيب، فظننت أنه يوحى إليه، ثم تلا عليهم الآية.

وقيل: الآية مكية والضمير لقريش، وذلك أنهم قالوا: نسأل عن محمد أهل الكتاب من اليهود، فأرسلوا إليهم إلى المدينة النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط، فقال اليهود لهما: جرباه بثلاث مسائل: سلوه عن أهل الكهف، وعن ذي القرنين، وعن الروح؛ فإن فسر الثلاثة فهو كذاب، وإن سكت عن الروح فهو نبي. فسأله قريش عن الروح، فيروى أن النبي ﷺ قال لهم: " غدا أخبركم به "، ولم يقل إن شاء الله؛ فاستمسك الوحي عليه خمسة عشر يوما معاتبة على وعده لهم دون استثناء، ثم نزلت هذه الآية.

واختلف الناس في الروح المسؤول عنه، أي روح هو؟

فقال الجمهور: وقع السؤال عن الروح التي في الأشخاص الحيوانية ما هي؟ فالروح اسم جنس على هذا، وهذا هو الصواب، وهو المشكل الذي لا تفسير له.

وقال قتادة: الروح المسؤول عنه جبريل. قال وكان ابن عباس يكتمه. وقالت فرقة: عيسى ابن مريم. وقالت فرقة: الروح القرآن. وهذه كلها أقوال مفسرة، والأول أظهرها وأصوبها.

وقوله ﴿مِرَامِرَ رَبِّ﴾ يحتمل تأويلين:

أحدهما: أن يكون " الأمر " اسم جنس للأمور أي: الروح من جملة أمور الله التي استأثر بعلمها، فهي إضافة خلق إلى خالق.

والثاني: أن يكون مصدرا من أمر يأمر، أي: الروح مما أمره أمرا بالكون فكان.

وقرأ ابن مسعود والأعمش " وما أوتوا "، ورواها ابن مسعود عن النبي ﷺ. وقرأ الجمهور " وما أوتيتم ". واختلف فيمن خوطب بذلك، فقالت فرقة: السائلون فقط. وقال قوم: المراد اليهود بجملتهم. وعلى هذا هي قراءة ابن مسعود. وقالت فرقة: العالم كله. وهذا هو الصحيح؛ لأن قول الله له: ﴿فُلِ الرُّوحِ﴾ إنما هو أمر بالقول لجميع العالم؛ إذ كذلك هي أقواله كلها، وعلى ذلك تمت الآية من مخاطبة الكل. ويحتمل أيضا أن تكون مخاطبة من الله للنبي ﷺ ولجميع الناس. ويتصف ما عند جميع الناس من العلم بالقلّة بإضافته إلى علم الله عز وجل الذي وسع كل شيء.

ثالثاً: مقاصد الآيات:

- تهدف هذه الآيات إلى تحقيق مقاصد تربوية عديدة، منها:
- إنعام الله تعالى على الإنسان بالقرآن الكريم الذي هو شفاء لأمراض القلوب ورحمة للمؤمنين.
 - توجيه الله تعالى رسوله ﷺ والمؤمنين إلى أسلوب التخلص من الجدل الفارغ والحوار غير المثمر؛ إذ أرشدهم إلى الإعراض عن ذلك ونسبة العلم به إلى الله تعالى.
 - التأكيد على أن الناس إنما يسировون وفق ميولهم وطبائعهم المنبثقة من تربيتهم وأخلاقهم، وأن من طبيعتهم في أكثر الأحيان أن يستكبروا ويبتعدوا عن الحق إذا نالوا خيراً ونعمة، وأن ييأسوا ويكفروا إذا نالهم شر ونقمة.

التقويم

- 1 - لماذا كان القرآن الكريم شفاء ورحمة للمؤمنين وخساراً للظالمين المشركين؟
- 2 - ما الحكمة من إعراض الله تعالى عن إجابة المشركين عن حقيقة الروح؟
- 3 - كيف تؤثر هذه الآيات في الصحة النفسية للمسلمين؟

الاستثمار

قَالَ ابْنُ عَبَّيَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَجَا يَجَانِبُ، وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوساً﴾ [الإسراء: 83]: "يَنْبَغِي لِلْمُؤْمِنِ الْمُشْفِقِ عَلَى نَفْسِهِ أَنْ يُعْمِنَ النَّظَرَ فِي كَلَامِ سَيِّدِهِ، فَإِذَا وَجَدَهُ مَدَحَ قَوْماً بِعَمَلٍ بَادَرَ إِلَى فِعْلِهِ، أَوْ بَوَصَفَ بَادَرَ إِلَى التَّخَلُّقِ بِهِ، وَإِذَا وَجَدَهُ ذَمَّ قَوْماً بِسَبَبِ عَمَلٍ تَبَاعَدَ عَنْهُ جَهْدَهُ، أَوْ بَوَصَفَ تَطَهَّرَ مِنْهُ بِالْكَلْبِيَّةِ. وَقَدْ ذَمَّ الْحَقُّ تَعَالَى هُنَا مَنْ بَطَرَ بِالنِّعْمَةِ وَغَفَلَ عَنِ الْقِيَامِ بِشُكْرِهَا، وَمَنْ جَزَعَ عِنْدَ الْمُصِيبَةِ

وَأَيَّسَ مِنْ ذَهَابِهَا. فَلَنْ يَكُونَ الْمُؤْمِنُ عَلَى عَكْسِ هَذَا، فَإِذَا أَصَابَتْهُ مُصِيبَةٌ أَوْ بَلِيَّةٌ تَضَرَّعَ إِلَى مَوْلَاهُ وَرَجَا فَضْلَهُ وَنَوَالَه، وَإِذَا أَصَابَتْهُ نِعْمَةٌ دُنْيَوِيَّةٌ أَوْ دِينِيَّةٌ أَكْثَرَ مِنْ شُكْرِهَا".

[البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، لابن عجيبة: 3 / 227]

أتأمل النص وأجيب عن الآتي:

- 1 - كيف يتعامل المؤمن مع محاب الله ومساخطه؟
- 2 - أبين من خلال النص ما يساعدني على شكر الله تعالى وتزكية نفسي.

الإعداد القبلي

أتأمل الآيات: 86 - 89 من سورة الإسراء وأجيب عن الآتي:

- 1 - أبحث عن مدلولات العبارات الآتية: **كُفُورًا** - **وَلَقَدْ صَرَّفْنَا** - **مِرْكَاتٍ** - **كُفُورًا**.
- 2 - أوضح ما استشهد به ابن عطية رحمه الله على فصاحة العرب ونباهتهم، فيما يأتي:
 - فهم الفرزدق شعر جرير في شعر ذي الرمة: "يعد الناسبون إلى تميم".
 - قول الأعرابي: عز فحكم فقطع.
 - قول الأعرابي للأصمعي: من أحوج الكريم إلى أن يقسم؟
- 3 - هل الاستثناء في قوله سبحانه: ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ﴾ منقطع أم منفصل؟ وما الفرق بينهما؟ وهل لذلك أثر في تفسير الآية؟